الصدمة والكتابة الحدية: قراءة في رواية "يوم الزلزال" لنينا بوراوي

Trauma and writing of borders: a reading of the novel “the day of earthquake” by Nina BOURAOUI

أسماء بوسعيد [1]*، دليلة زغودي [2]

[1] المركز الجامعي مغنية، تلمسان، الجزائر، bousaid.asma@cumaghnia.dz

مخبر المعالجة الآلية للغة العربية بجامعة أبي بكر بلقايد –تلمسان–

[2]المركز الجامعي مغنية –تلمسان–، الجزائر، daliazegh1982@gmail.com

مخبر المعالجة الآلية للغة العربية بجامعة أبي بكر بلقايد –تلمسان–

تاريخ الاستلام: 2022/09/14 تاريخ القبول: 2023/02/09 تاريخ النشر: 2023/06/05

ملخص: تؤثر الصدمة في حياة المبدع وعلى كتاباته؛ باعتبارها ليست مجرّد حادثة تنتهي في لحظتها، وإنّما تستمر كدماتها وتأثيراتها السيكولوجية لتضغط على الذات باستمرار، مخلّفة تصدعات عميقة في هويّة المصدوم وذاكرته، وتلقي بظلالها على لغة النّص وتفاصيله. ومن هنا تسعى هذه الدراسة إلى مقاربة الصدمة وتداعياتها في رواية "يوم الزلزال" «le jour du séisme»للكاتبة الفرانكو–جزائرية نينا بوراوي

كلمات مفتاحية: الصدمة.، الذاكرة.، الكتابة الحدية.، يوم الزلزال.، نينا بوراوي

Abstract: Enter Trauma effects the creator’s life and his writings; as it is not just an accident that ends in its moment; rather; its bruises and psychological effects continue to put pressure on the self constantly, leaving deep crakcs in the identity and memory of the victim, it casts a shadow over the language and details of the text Hence; this study seeks to approch the trauma and its repercussions in the novel “the day of earthquake” “le jour du séisme” by the franco-algerian writer Nina BOURAOUI.

Keywords: trauma; memory; writing of borders; the day of earthquake; Nina BOURAOUI.

* **المؤلف المرسل**

1. مقدمة:

من المألوف أن يجد الإنسان نفسه، وعبر مختلف العصور، في مجابهة قوى طبيعيّة، تلقي بثقلها الضاغط على وجوده الفرديّ والحضاريّ، بيد أن هذه المجابهات التي تفصح في حالات كثيرة عن انتصارات معتبرة حقّقتها البشريّة أمام تلك القوى؛ تسفر، بالمقابل، عن خسارات جمّة تثبت في كلّ مرّة تحدّيها للوجود الإنساني؛ وإن لم تُعلِّمه شلله التامّ، فإنها جعلته يقف على هشاشته وضَعفه.

على أن المهمّ، وفي جميع الأحوال، هو كون التحديّات الطبيعيّة ظلّت وما زالت، التربة الخصبة التي ترعرعت فيها شتّى الفنون والآداب وسائر مجالات المعرفة، فقد جسّدت، مجالاً حيوياً كفل تفجير طاقات الإنسان الإبداعية وأسهمت في تفعيل خياله الجامح، حتى ليمكن القول إن تاريخ الحضارة الإنسانيّة هو تاريخ التضامّ والصراع مع الطبيعة في الآن نفسه.

الطبيعة، إذن، طاقة ذات حدّين، أحدهما بهيج ثرّ يتجلى في نضارة هذا العالم، والآخر مشوب بالخطر والشرور يتجسّد حينما تعترض المرءَ فواجع عنيفة يمكن أن تعصف بحياته، وإن لم تفعل، فإنها في أحسن الأحوال، لا تترك خلفها سوى جراحات عميقة يصعب محوها أو تجاوزها، وقد سبق لفرويد (S.Freud) في كتابه "قلق الحضارة" أن أشار إلى ثلاثة شروطات كبرى تنغّص الوجود الإنسانيّ وتطوّقه، إحداها هي الطبيعة، يقول فرويد: "الألم يتهدّدنا من ثلاث جهات: في جسمنا بالذّات، المكتوب عليه الانحطاط والانحلال، والعاجز حتى عن الاستغناء عن تلك النذر المتمثّلة في الألم والهمّ، ثمّ من جهة العالم الخارجيّ الذي تتوفّر له قوى عتيّة ولا تعرف الرحمة في ضراوته علينا وسعيه إلى إبادتنا.."[1].

لقد باتت هذه الحالة الناجمة عن العلاقة الجدلية بين الإنسان والطبيعة، تعرف في العلوم النفسية والإنسانية بالصدمة، وقد قاربتها الكتابة السردية من زوايا متعدّدة وبطرق متباينة.

ومن هنا، تحاول هذه الدراسة الوقوف على إحدى الصدمات التي عايشتها الجزائر إبّان الثمانينات من القرن الماضي، ونعني زلزال سنة (1980) في مدينة الأصنام الجزائريّة (الشلف حاليا) وتتبّع أثره في رواية "يوم الزلزال" للكاتبة الفرانكو–جزائرية نينا بوراوي[2].

فما الصدمة؟ وما دورها في الكتابة السردية؟ وكيف تجلّت تأثيرات الهزة الأرضية على رواية يوم الزلزال لنينا بوراوي؟

2. الصدمة وسردية الألـم:

إنّ التعرّض لمشاعر القلق والخوف أو الحزن يعتبر جزءً من الحالة الطبيعية للحياة الإنسانية، بيد أن هذا الشعور، يتضاعف في أوضاع خاصة، ويستحيل إلى هاجس عنيف يمارس سطوته على الشخصية، وكثيراً ما يفضي إلى الاكتئاب والانهيار والماليخوليا والفزع أو حتى الانتحار، وتلك هي الصدمة.

في اللّسان الأجنبيّ نلفي أن مفردة الصدمة (Trauma)، "مشتقة من الإغريقيّة Terminus وتعني الجرح النازف، ولا يستخدم هذا المصطلح حرفيا، لأن الجرح المكثف جسديا ونفسيا قد يحدث دون نزف"[3].

من الواضح أن للصدمة تأثيرات ذات طابع كارثي، ورغم أنها تحصل في زمن وجيز إلا أن عَقابِيلها تستمر لفترات أطول من لحظة وقوعها، ويمكن أن تظلّ راسخة في ذاكرة المتعرّضين لهذا القدر على امتداد الحياة برمتها، لأن المصدوم كثيراً ما ينزع إلى تأمّل

المعاناة التي جلبتها عليه الحوادث الصدمية ليجد نفسه داخل دائرة واسعة من الاسترجاعات والتذكارات الفائضة عن مجال قدرته وتحمّله النفسي.

وبصورة عامة، فإن الصدمة هي أن يجد الإنسان نفسه أمام وضعية أليمة ومفاجئة وهو عاجز عن إيجاد حلول لتلك الوضعية. قد تحل به كارثة طبيعية كالزلزال والفيضان وقد ينتهي به الأمر في السجن أو في حرب دموية وهذه الأوضاع والبواعث غالبا ما تؤلف ما يسمّى بالصدمة.

وهي كما وردت في معجم مصطلحات التحليل النفسي "أي حدث يقتحم فجأة التنظيم النفسي للفرد، وتتولد معظم الوضعيات المولدة للأعصبة الصدمية من حوادث ومعارك وانفجارات، إلخ"[4].

ورأى فرويد في إطار حديثه عن تفوق مبدأ اللّذة أنّ الصدمة هي " ما يأتي من مثيرات العالم الخارجي التي تبلغ من القوة حدّا يؤدي بها إلى اختراق الدرع الواقي"[5] وأشار إلى إمكانية حدوث حالة مناقضة أين يتفوق الهلع الناتج عن الصدمة على مبدأ اللّذة، متى يفقد الجهاز النفسي للإنسان كافة إمكانياته وقدراته الدفاعيّة.

وأمّا العصاب الصدمي névrose traumatique فهو نمط من العصاب تظهر فيه الأعراض إثر صدمة انفعالية ترتبط عموما بوضعية أحسّ الشخص فيها حياته مهدّدة بالخطر، وهو يتخذ في لحظة الصدمة شكل نوبة قلق عارمة قد تجر إلى حالات من الهياج والذهول أو الخلط العقلي"[6].

تنتج الصدمة قلقا وفزعا لدى صاحبها، يؤثران على تصرفاته وشخصيته ونفسيته عن طريق تذكر ذلك الحدث الصدميّ خلال مراحل عمريّة مختلفة كلّما حضرت المناسبة التي تستدعي ذلك.

وتختلف الصدمة باختلاف البنى النفسية للأفراد وتصبح، بالتالي، أمرا نسبيا، إذ يمكن لحادثة بسيطة أن تخترق دفاعات الجهاز النفسي لشخص ما خاصة إذا ما تعرض سابقا لعصابات نفسية أيّا كان نوعها، ممّا يجعلها متراكمة ومضعفة لدفاعاته؛ بينما تتطلب بنية نفسية أخرى حادثة عظيمة القوة حتى توقع صاحبها في مأزق صدميّ.

ويذهب فرويد في دراسته للعصاب الصدميّ الناتج عن الانفصال والفراق إلى أنّ أي شخص بالضرورة قد تعرّض لهذا العصاب وما يأتي بعده من عصابات تكون مفجرة له فقط، وأيّ شخص بالضرورة هو مهيّأ للعصاب الصدميّ فقط تتفاوت درجة قوته من شخص لآخر بحسب قدراته على التحمّل والصّد، حيث يقول: "إنّ الانفصال عن الأم بالميلاد هو أوّل صدمة يتعرّض لها الطفل، وكلّ حالات الانفصال التاليّة عبارة عن تكرار لحالة الانفصال الصدمويّ التّي نعانيها لأوّل مرّة في الميلاد باعتبارها أوّل خبرة لنا في الحياة، والفطام صدمة أخرى، والخبرة التّي يتضمنها هي خبرة الانفصال عن الثدي"[7] وبهذا تكون صدمة انفصال الجنين عن جسد أمّه أوّل حدث قوي صادم يتعرّض له الإنسان عند بداية حياته، وتليها صدمة الفطام نظرا لما تحملانه من راحة وإشباع تؤثر على الرضيع حال انقطاعها.

وإذا علمنا أنّ الصدمة لا يمكن البتة تجاوزها، أو نسيانها بصورة تامّة، فإنه من وجهة نظر تحليلنفسية، تتمُّ ترجمتها، بطريقة أو بأخرى، عبر ميكانيزمات دفاعيّة كثيرة تلجأ إليها الذّات من أجل النهوض والاستشفاء، وفي مقدّمة تلك الميكانيزمات تأتي الكتابة؛ فما العلاقة بين الكتابة والصدمة؟

لئن كانت كلّ كتابة تنشد بالضرورة الخلاص من وضع تخضع فيه الذّات لاستلاب (Aliénation)ما، وتحاول أن تتحرّر من المعاناة، فإنه ليس جديداً القول بأن العلاقة بين الكتابة والتنفيس عن الصدمات علاقة متينة وقديمة قدم الكتابة ذاتها.

ذلك لأنّ فعل تحويل تجربة الصدمة إلى مجال الكتابة السردية، يندرج ضمن ما يعرف في إطار التحليل النفسي بـ: "العلاج بالكلام "(La Cure de Parole) حيث تضطلع الذات بالتنفيس عما عايشته ومرّت به من خلال السرد ، وحسب المحلل النفساني الفرنسيّ جاك لاكان (J.Lacan) نجد أنه "إذا تم كبت الأحداث الماضية من الذاكرة فإنها تعود من خلال التعبير عن نفسها بالأفعال، وعندما لا يتذكر الشخص الماضي، فهو مضطر لتكراره بالتنفيس"[8].

هكذا، يمكننا على الصعيد النقدي، قراءة كتابة الصدمة بوصفها إحدى نشاطات الدفاع عن الشخصية وتدبير الذات، وليست ضرباً من المحاكاة أو الانعكاس الآلي فحسب، لأنها تخضع إلى مؤثرات اجتماعيّة وسيكولوجية لها عميق الأثر في تكوين العمل الأدبي وصياغة بناه السردية وإيحاءاته الرمزية. وكتابة الصدمة، هي إذن، معاناة. وتجسيد لتلك المعاناة عبر الكلمات، وهي في الوقت نفسه، تخلّص من الألم والرضوض والانهيارات النفسيّة.

وكل هذا، يفتح الباب لتأمل تجليّات الصدمة عبر الكتابة السردية ويفترض، إعادة النظر في وظيفة الكتابة ذاتها، ويقود إلى التساؤل:

كيف تم تمثيل الصدمة في رواية "يوم الزلزال" لنينا بوراوي؟ وما علاقتها بالذاكرة والبنى اللغوية والمتخيل؟ وكيف نقشت آثارها على فعل الكتابة؟

3. انعكاسات الصدمة وتجلياتها في رواية يوم الزلزال:

أكّدت الكتابات التي دارت حول قضية الزلزال –في الآداب العالمية والفرنكوفونية على حد سواء– بما لا يدع مجالاً للشكّ، أن هذه الكارثة تترك آثارها البارزة في

حياة المبدع وتسم كتابته بشتى التمظهرات الرضّية، فالزلزال لا يقف عند كونه كارثة طبيعيّة فحسب؛ بل يستحيل إلى تهديد صارخ بفقدان الهويّة والأرض والجسد والذاكرة...

ولئن اختلفت دلالات الزلزال وتوظيفاته إلّا أنه مثّل البؤرة المركزيّة في روايات عالمية وعربية عديدة، كما هي الحال في رواية (Après le tremblement de terre)لليابابي هاروكي موركامي عن الزلزال الذي أصاب اليابان سنة (1995)، أو رواية "الزلزال" للأديب الجزائري الطاهر وطار أو رواية (Danser les ombres) للروائي الفرنسي لوران غودي (Laurent Gaudé) عن زلزال هايتي سنة (2010).

والوضع مختلف كما سنرى، لدى الكاتبة "نينا بوراوي" في روايتها الخامسة "يوم الزلزال" (Le Jour du Séisme) الصادرة سنة (1999)؛ حيث تضع القارئ أمام تجربة الزلزال العنيفة التي عايشتها إبان مرحلة الطفولة، لتنفصل بعد هذه الحادثة، وبصفة نهائية، عن الجزائر متّجهة صوب فرنسا، أين لم تعد تملك من حياتها السابقة سوى ذاكرتها.

1.3 الفاجعة ناظماً سردياً:

تتشيّدُ الرواية بالاتّكاء على الزلزال الذي يتَّخذ موقعاً حاسماً داخل النسيج السّرديّ، حيث يمتدّ من أوّلها إلى آخرها مشكّلاً خيطها النّاظم الذي تتحرّك حوله مختلف العناصر الأخرى، ويعكس هواجس ذات ساردة تجرّعت في غضارة عمرها أعطاب كارثة لم تشف منها، فتستعيدها عبر توسّل السّرد باعتباره تثميراً لفعل الصدمة وتجاوزاً له في الآن عينه.

"أرضي تهتز"؛ صرخة مدويّة يتردّد صداها في مقاطع سرديّة عدّة، تأتي لتعبّر عن الشَّرخ الذّي يُقيمه الزلزال بين المرء وأرضه، حيث تنفصل الذّات عن جذورها وينابيعها، وتخرج من منطقة أمانها النفسيّ لتلقى في خضم منطقة أخرى مجهولة المعالم.

في هذه المنطقة الجديدة تطرأ خلخلة عميقة على مستوى الذات، كنتيجة مترتبة عن فعل الاهتزاز الأرضي الذي يقود المصدوم إلى الشعور العنيف بفقدان الوجود الطبيعي وما يصاحبه من طمأنينة واتزان.

تجد الساردة نفسها، وهي طفلة، في مواجهة قسريّة مع الزلزال، تكتب هذه التجربة بجسارة الانفتاح على أقاصي الذَّات والعالم والمعنى، ويشي السّرد بأن النظر إلى الزلزال قد تمَّ من مواقع وزوايا مختلفة، تقلّبه على وجوهه المتباينة، فتجعله يتمظهر في كلّ مرّة بصفة ما؛ بعض هذه الصفات بشوبعضها الآخر ميثولوجيّ، بيد أنها، تجتمع في التشديد على عدائية هذه الظاهرة، تقول "إنّه يغتال طفولتي، أنا أفقد بسببه أصلي، الأرض تختفي وتخفي معها أسراري، أنا أدخل حراكاً غريباً"[9].

على هذا النحو، وبشكل مستمرّ، نلحظ كيف تُعير الرواية كبير اهتمام لآثار الزلزال المفضية إلى الغياب والاختفاء، ومن خلال عبارات مقتضبة وخاطفة، ينكشف الشعور بالخسارة وقد امتزج برغبة دفينة في استعادة الذاكرة والجذور والتشبث بهما.

يبعث الزلزال على الخوف والذعر، ويجعل المتعرض لهذا القدر يشعر بالوحدة، ذلك ما يفصح عنه المقطعان الآتيان: "لقد أصبحت بدون مدينتي الجزائر، بدون طفولتي، بدون.....، خاضعة للصخب والنفس العنيف"[10] و "الزلزال يحرق طفولتي"[11] .

بهذه الصورة، يؤثّر الزلزال على نحو بيّن، في العلاقة بين الذّات والمكان؛ بحيث لم تعد مجرّد صلة بما تتوضع ضمنه الأشياء والكائنات، وإنمّا تتجاوزها إلى أبعاد أنطولوجية، نفسية واجتماعية مختلفة.

يبرز البعد الأول حين تجبرُ الكارثةُ السّاردةَ على وضع الكينونة والآخر والطبيعة على محكّ النظر والسؤال، ويتجلّى البعد الثاني في كون العلاقة بين الأرض والزلزال تحيل، بصورة رمزيّة ومضمرة، إلى ما يوازيها وما هو قائم على مستوى العلاقات الاجتماعية.

فتمتحِن الكتابةُ الذاتَ والآخر والفضاء، حيث يستلم ضمير المتكلم "أنا" (Je) السرد، ليفصح عن ارتباكات الذات إزاء الوجود، فالمواجهة بين الطبيعة، كمرآة، والإنسان/الطفل كمتأمّل ومؤوّل، كانت كفيلة بمراجعة مفاهيم تبدو مستبعدة لبداهتها، وتدعو المتلقي إلى عدم التسليم بسهولة لما قرّ عنده من مدلولات الأرض أو الجسد.

كما لبس السرد ثوب النفسيّ، عندما جمعت السّاردة بين زمن الحاضر وضمير المتكلّم أثناء فعل الاسترجاع، لترتدّ الذاكرة نحو لحظات الزلزال ويتحسّس الجهاز النفسيّ قلقه وآلامه من جديد، تقول: "أرضي تتحول(..) أنا أقاوم(..) مغامرتي فريدة من نوعها"[12]

هكذا إذن: "تتصف الحياة الحلميّة في الأعصبة الصدميّة بأنّها تردّ المريض باستمرار إلى وضعيّة الحادث الذّي وقع له، وهيّ وضعيّة يصحو منها في حالة جديدة من الرّعب"[13]

هلع الزلزال ثابت ومستمر، كأنّه ركود زمنيّ وألم لا نهائيّ، يتحوّل بسرعة إلى إعصار نفسيّ يستحيل التخلص منه، تقول: "الزلزال يفرض زمنا ثابتا من الخوف، إنّه خلود سيئ"[14] وتقول أيضا: "الإحساس بالزمن أصبح منعدما"[15]

وأمّا البعد الثالث، أي الاجتماعيّ، فهو مضمر، ويمكن كشفه من خلال معاينة بنية التقابل والتضادّ التي انبنت عليها الرواية في تقسيمها للفروقات التي يتسم بها كلّ من الزلزال والأرض.

ومن جملة التقابلات، استنادا إلى ما ورد في النّص، ما يأتي:

الزلزال	الأرض
شيطانيّ	ألوهيّ
ثاناتوس	إيروس
النار	الماء
أبويّ	أموميّ
سلب	إيجاب
(هو) II	الأنا
ذكوري	أنثوي
الموت	الحياة
صخب	هدوء

تعجّ الرواية بمثل هذه الثنائيات المشحونة بالصراع، وبإجالة النظر فيها، يتبدّى لنا حجم العدائية المتولدة عن الزلزال الذي ما فتئ يكسر ويدمّر، فهو بمقدار ما يخلخل المكان وينسفه؛ يلغي كذلك الزمن ويستلب ماضي الذات التي عاصرت تلك التجربة المتوترة.

الرواية مثلما يرى الناقد الفرنسي ميشال بوتور في جوهرها بحث[16]؛ بحث عن قيمة ما، و"يوم الزلزال"؛ ومن خلال استعادتها للصدمة تتجّه على الصعيد الظاهر، نحو البحث عن الزمن الضائع، وتتحسس أرض الطفولة وتنطلق في عمقها باحثة عن أسئلة وإشكالات، ليس آخرها؛ جوهر الحياة أو معنى الفضاء.

لا تتقصّد الرواية الإخبار عن حادثة الزلزال فقط؛ لأنها لم تكن مهتمّة بالتوثيق الزمني، وإنما أخذت على عاتقها قول هموم الذّات وإماطة اللّثام عن الضغوطات التي تتعرّض لها في رحلة الحياة، صحيح أن الزلزال يهدم العلاقة بالمكان، ويقتلع كل ما هو فوق سطح الأرض الدافئة، أين تقول "أصبحت جسداً بدون أرض، فقدت الشواهد، أنا أضغط على ذاكرتي"[17].

لكن الزلزال، بالمقابل، هو ما دفع الذّات إلى الوعي بالعالم الخارجيّ والجسد، أين أسهم في تفتّح الوعي، وإدراك حركة الكون الديالكتيكية، تلك الحركة المتناوسة بين الهدوء والعنف، بين السعادة والشقاء، بين الحياة والموت، أي، بين غريزة الهدم (ثاناتوس) وغريزة البناء (إيروس).

ولأن المؤلّفة ارتأت أن تَستلم الطفلةُ زمام السّرد، فالسؤال القمين بالطرح: ما الذي يعنيه أن يفقد الطفل أرضه؟ ثم ما معنى أن يرد السرد على لسانه؟

من وجهة نظر التحليل النفسي تنماز مرحلة الطفولة بتمركز الاهتمام حول الذات (Egocentrisme)؛ حيث لا يفصل الطفل بين العالم الخارجي وذاته، فيرى كلّ ما حوله جزءً لا يتجزأ من كيانه، ومن ثمّ، فإن التغيرات التي يتعرّض لها فيما بعد، تنفي وتشوّش وهم هذه الوحدة المتطابقة، وتقود بالتالي، إلى تحوّلات في الوعي تجعل الذّات تنسحب من مركزيّتها، لتدرك موقعها من العالم وانفصالها عنه، ولذلك فمرحلة الطفولة على قدر بالغ من الحسم والأهميّة في تكوين شخصيّة الإنسان، وتحديد ملامح الحياة التي سينتهجها لاحقاً.

تكشف هذه المعطيات السيكولوجيّة عن الكثير من السّمات الكامنة خلف الخطاب الروائي في يوم الزلزال، فمرحلة الطفولة مثّلت النبع الأكبر للانثِيالات السردية، إذ إنّ

الإسقاطات التي تلحقها السّاردة بالزلزال، على غرار "السارق" أو "الشيطاني" أو "العدو" أو "الشّرير"؛ تشي ببوح طفوليّ يرفض كلّ ما من شأنه أن يهدّد العالم باعتباره جزءً من بنية الذّات.

وإلى جانب هذا، فإنّ ما نقرأه من التعبير عن علاقة مشيميّة تربط الذّات بالأرض، أو بالأحرى تجعلها تتماهى معها(Identification)، وتفصح عن تملّكها هو أمر يعضد الرأي السالف، ويشهد على النزوع الطفوليّ، فتردّد عبارة "أرضي" (Ma Terre) كان بمقدار تردّد مفردة الزلزال(Séisme)، وواضح أن هذا النزوع يضرب بجذوره في ظاهرة الإخضاع (Assimilation) التي يسعى خلالها إلى اجتذاب كلّ ما يحيط به، وتملّكه.

يعزّ على الأنا الساردة التسليم بانهيار الأرض، إلا أنها، في الأخير، تقف من الزلزال وقفة مستكينة، وتغدو الكتابة بمعناها الواسع على حد تعبير ميشيل ديرميه "النشاط الذي يُعلن عن خورنا، كل النشاطات الأخرى تحيد عن ذلك، تقنّعه أو تحاول أن تتداركه. الله، الأولاد، التصورات، العلاجات، النزاع السياسيّ، كل ذلك يربطنا بالحياة بواسطة أحد الأطراف، لكننا نعلم أن الطرف الآخر يبقى طليقاً"[18].

الفقد، والشّعور بالوحدة، والذّعر، وترقب المجهول بهلع هي سمات الصدمة، وسيتبيّن أنها متضمنة في الرواية بالتناوب: "أنا أفقد الجزائر. الزلزال يفتح الأرض ثم يغلقها. إنّه يلتهم، ويتطرف..أنا أفقد أماكن ذاكرتي"[19].

وفي هذا المقام يمكن الإشارة إلى انفصالين بارزين على ما بينهما من تعالق وتشابك عميق، يتجسّد الانفصال الأول في لحظات الولادة التي تعود آثارها النكوصية من حين إلى آخر، فيما يتجلى الانفصال الثاني في الخروج من الأرض الجزائرية التي كانت تعد بالنسبة للساردة الأم الثانية والكبرى، فيتمظهر القلق الطفوليّ الأوّليّ من جديد لحظة الاقتلاع من

الأرض، وهذا ما يعبّر عنه المحلل النفساني أوتو رانك O.Rank في قوله: "يرجع الإحساس بالقلق عادة إلى القلق الفيزيولوجي الذي يصاحب الولادة، متمثلا في صعوبة التنفس"[20]

وفي مقطع سردي آخر تقول:" الزلزال يحدث المنفى والاختلاف. إنّه يعبر الجسد ويفرض عليه شرخا، إنه يشوه الأصل ويؤسس لأصل جديد، إنّه يعدّل الولادات، إنّه فوري وعميق. لقد أصبحت شخصا آخر، أنا آتية من الزلزال"[21].

هكذا، هي الصدمة تفرض على الكتابة أن تكون "كتابة فاجعة"[22] حسب تعبير موريس بلانشو القائل: "لن تكون المتكلّم، فدع الفاجعة تتكلّم فيك، ولو بالنسيان أو الصمت"[23] فالكتابة، إذن، تحاور الفاجعة التي تخرّب، تسائل الإنسان في ضعفه، وتبلبل اللّغة التي تغدو ذريّة وشذرية إلى أبعد الحدود، وإذا كان الموت في الرواية المعاصرة رمزاً لقوى التبدّد وإلغاء الواقع فإنه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالكوارث والصدمات التي تكون، في أحايين كثيرة، سبباً مباشراً في حدوثه

4. كتابة العودة، كتابة المكان:

يتسبّب فقدان المكان والمستقر في فقدان المعنى، وبحدوث الزلزال تضطرب العلاقة القائمة بين الكائن وبيئته، وحينها يستحيل المألوف إلى غريب، والأليف إلى معاد: "فراق الجزائر فعل عدوانيّ، هو خلع للجذور التّي تحفظ الذاكرة، نواتها، وأصلها، هو التنكر للذّات...الطفولة أصبحت من التّاريخ"[24] وتقول أيضا: "من يعلم، في الأخير طفولتي مرتبطة باللّغز الجزائري؟"[25].

وعن العود إلى المكان المفقود، حتماً، سينتصب السؤال المهمّ: بأيّ لغة تعود الرواية إلى المكان؟

يطال التشويش نظام الكتابة، ويبدو الارتباك قائما بصورة مقلقة، في نسيج النص، وفي شكله، وعبر صياغته، وكذا في المدلولات المنبثقة عنه، ولمَ لا؟ فكلّ كتابة تحاكي المعاناة والفاجعة، هي كما يرى موريس بلانشو "كتابة بالنقصان"[26] بحيث يمارس نظام اللغة سطوته على النص.

في هذا النطاق المحفوف بالصمت والمفاجأة، يتنزّل نصّ "يوم الزلزال"، وهو نصّ نحاول بعسر تخليصه من المباشرة والبساطة التي يبدو عليها، ونحاول وضعه في إطار يتجاوز مألوفيّته البديهيّة، فشدة الشرخ أفضت إلى كون اللغة السرديّة، في مقاطع كثيرة، تكتب الصمت بدلاً من الكلام، وتعتمد الحذف عوضاً عن التفسير، ولعلّ الصدمة سبب منطقي وكافٍ لتعذّر التجلّي والبيان.

تمسي الرواية مساحة للإصاخة العميقة لكلّ ما يحيط بالذّات، ويتكفّل السّرد باستنطاق الأشياء والكائنات، بل ينتقل من محاورة الأشياء إلى الإحساس بكينونتها l'être des choses ومن أهم العناصر التي تستمرِئ الرواية محاورتها: المكان. فإذا كانت "مغادرة الجزائر هي الانفصال عن الذات"[27]، وهي الصدمة الثانية في الرواية بعد صدمة الزلزال، فإنها تجثم بدورها على الذاكرة، لأن الاقتلاع الذي تعرّضت له الشخصيّة يعاود الظهور بشكل مزمن عبر السرد. فثمة، وعلى الدوام، قلق يحثّ الذاكرة على الرجوع إلى زمن الطفولة، ويُحيي نوستالجيا لا تستنفدها الكلمات.

انتزاع الزلزال للذات من مكانها الأليف، والقذف بها إلى حياة جديدة مختلفة، هو نقطة تحوّل أخرى بارزة في حياتها، جرّدتها من براءتها ويقينها، أدخلتها في أسئلة ذات طبيعة إشكالية خصوصاً ما تعلّق بتموقع الوطن الأم في وعي المقتلعين والمنفيين.

وقد صارت الرواية، نظراً لذلك، مرثية طويلة انشغلت باستحضار أماكن الطفولة التي عاشت فيها الساردة، عبر أربع عشرة سنة بين ربوع الجزائر، بمدنها وبحارها وصحرائها وتلالها، تقول: "أعرف الحقول الشاسعة والمرتبة، أعرف الآثار الرومانيّة النّفيسة، السّهول وأوراس، أعرف الأخضرية وبجاية، أعرف تلمسان وتاغيت، أنا مرتبطة، أرضي هي فضائي، أرضي هي... مازلت أعيش يوم الزلزال، حياتي كارثيّة"[28].

لقد كان فقدان الساردة لأرضها يعني الاقتلاع من الجذور التي تربطها بهويّتها الجسديّة والثقافيّة والاجتماعيّة، وكان لا بد، ها هنا، أن تراهن الكتابة على الجسد لأنه مدار النفيّ والعطب، وقد هيمن بالفعل على مساحة كبيرة من الرواية، وتجاوز السرد النظرة التقليدية التي تضع هوّة شاسعة بينه وبين الروح، أو تلك التي تتنكَّر له، وتُحقّره باعتباره عقبة أمام الروح في طريقها إلى الحقيقة والسموّ.

في "يوم الزلزال"، لن يعود الجسد مجرد إطار خارجيّ يحتوي النفس، لأنه " يُشكّل منبع الحياة والحركة والوعي. وهو مُكتسب قبليّ سابق على كل روح. فهو يُشكّل مركز الكون ومقاسه الضروريّ"[29].

متحت رواية يوم الزلزال من تاريخ جزائري يكاد يكون غير معروف لدى القارئ العربي والأجنبي على حدّ سواء، وهو الموصول بحدث الزلزال، ووقفت مطولاً عند تجربة

الخروج من الأرض، فمزجت بين الرومانسي واليوميّ، ودمجت الزمني بالجغرافيّ، ليتضّح التواشج الحميم بين الذّات والفضاءات المكانية؛ من مدن وأرياف ومقاه ومساكن.

إنّه دليل ناصع على شدّة معرفتها بالجزائر وارتباطها الهوياتي بها من جهة، وتأكيد لقوّة الحدث من جهة أخرى، وبالرغم من كونها ولدت بفرنسا من أم فرنسية وأب جزائري، وعاشت طفولتها بمدينة الجزائر العاصمة إلّا أنّها لم تحصر حبّها في حبّ مدينة الجزائر العاصمة فقط، بل شمل حبّها كل شبر وكل زاوية من الجزائر وهذا سبب كاف لجعل مغادرتها صدمة قويّة.

أثناء لحظات الزلزال شعرت الطفلة بأن أرضها ترفضها بالرغم من تمسكها بها، إنه الخروج القسريّ الذي يهزم الرغبة في التجذر داخل الرحم الأمومي الهادئ، وهذا الفراق ليس بالضرورة مجسّدا ماديّا، بل كان قويا على الصعيد النفسي حيث يبرز بسببه قلق الانفصال الطفولي الأولي.

وعلى كل حال، لم يكن للذات الطفولية أن تكبح هذا الخوف، رغم مقاومته، هذه القطيعة بينها وبين أرض طفولتها، غدت متعبة، وذلك طبيعيّ لكون "الأم ليست من تقرر إنهاء الاتحاد الرحمي المثالي بينها وبين صغيرها، بل هناك طاقة حيوية تدفع الطفل نحو الخارج، سواء رغب في ذلك أم لا...هذه القطيعة كبيرة للغاية، لأن الطفل سيرغم على ترك عالمه الدافئ ليدخل في عالم يليه، إن هذا الانفصال إذن هو بمثابة الموت والولادة من جديد"[30].

أمّا إهداء الرواية: "إلى ربيعة وبشير" وهما جدّة وجدّ الكاتبة، فإنه يمثّل إشارة أخرى إلى التجذّر والارتباط المتين الذّي يشدها إلى الفضاء الأم، ناهيك عن تردد ذكرهما في آخر الرواية، ملحة من جديد على الميثاق القوي الذّي يربطها بجذورها الجزائرية، ففي البدء وفي

الأخير هي تنتمي إلى هذه الأرض، تقول:" لقد جئت من أرض والدي، لقد جئت من أرض ربيعة وبشير، جداي، لقد جئت من الشعاب المرجانية والمنحدرات الفضية"[31].

معلوم، إذن، أنه لا يمكن كتابة الصدمة تزامنا مع لحظة وقوعها أو حدوثها، فقد يكتب عن آثارها ونتائجها أو أسبابها المختلفة، لكن من الصعب أو ربّما من المستحيل أن تكتب الصدمة حين حدوثها، لأنها لا تقال وإنما تعاش، وتترك أثرها الراسخ في حياة الإنسان.

ومن ثمّ فإن كتابة الصدمة تكون غير ممكنة دون نشاط الذاكرة وحركتها الارتدادية إلى الماضي والعودة إلى أزمنة الفاجعة، بولوج فضاء ثالث يتفاوض فيه الماضي والحاضر، وهذا بالضبط ما تقوم به المؤلفة في "يوم الزلزال".

لذلك، حاولت الروائيّة أن تتجاوز صدمة الزلزال، عبر استعادة أزمنة منصرمة بحلوها ومرّها، واسترجاع صور الأهل والأصدقاء، من أجل التصالح مع الأرض، وتكريس الانتساب إليها بالرغم من انفصالها عنها، "فسمة الفاجعة أن نظلّ تحت تهديدها دون سواها، وبذلك تتجاوز الخطر"[32]

إنّ وجود المبدعة في بلد آخر غير البلد الذي قضت به طفولتها يجعلها تحنّ إليه عن طريق ما يرتسم في ذاكرتها؛ "أرضي موجودة فقط من خلال ذاكرتي"[33] فذاكرتها تحفظ جمال وقيمة أرضها قبل أن يشوّهها الزلزال، ذاكرتها هيّ التّي تحفظ طفولتها بالرغم من الفراق الذي حدث بين أرضها وبين الأشخاص الذّين تقاسموا معها طفولتها.

ومع استحالة العودة تغدو الذاكرة هي الطريق الوحيد للحفاظ على ما تبقى من الذات: "ذاكرتي هي رابط دائم، حقيقة بدون آثار، هنا في ذاكرتي لا يسقط شيء، هنا الحياة

سعيدة. ذاكرتي هي الرابط الفريد الذي يحمل أرضي بدون زلزال، إنّه يحمل جسدي بدون جروح" [34].

هكذا إذن، الصدمة لم تكن موضوعا للكتابة بل محرّكا لها، يتأرجح بين فعلي التذكر والنسيان، يصل ويفصل بين الحاضر والماضي، ترتسم آثارها لدى المصدوم وتتجلى في حالات الكتابة المزعزعة للقلق والتهديد.

5. خاتمة:

حتى وإن كانت رواية يوم الزلزال للروائية نينا بوراوي تبدو نصاً ذاتيّاً، إلاّ أنها، ظلّت، منغرسة بصورة عميقة في الاجتماعيّ والثقافي، لكونها تأثثّت على نحو يتشابك فيه الشخصيّ بالجماعي، والسيريّ بالتخييليّ، والتاريخيّ باليوميّ.

ومن خلال تحليل الرواية يمكن استخلاص النقاط الآتية:

تضمنت رواية "يوم الزلزال" الصدمة بأبعادها الثلاثة: النفسية والاجتماعية والأنطولوجية، وانعكس ذلك على السرد عبر تمظهرات نصيّة:

- التكثيف، والترميز، والنكوص، والتردد، والشذريّة كلّها سمات طغت على الكتابة لتفصح عن الحالة النفسيّة للكاتبة، بحيث لازال مفعول تجربة الخلع من الجذور التي تجرعتها عبر حدثي الزلزال ثمّ مغادرة الجزائر ساريا، ويدفعها نحو الكتابة في سبيل التنفيس والتجاوز.
- بين الهنا والهناك، وبين حدّي المتوسط، تنشطر الساردة نفسيّا واجتماعيّا لتنفلت من حاضرها نحو ماضيها بطريقة توحي بتشابكهما، وبتصالحها مع مختلف الشروخات ومنفاها الذاتيّ ليغدوا جزءا من شخصيتها وحياتها.

- بعد مضي قرابة عقدين من الزمن تكتب نينا بوراوي لتفصح على لسان الساردة عن صراعات أنطولوجيّة بداخلها، كانت قد أحدثتها التجربتان المزلزلتان بعدما خلّصتاها من براءتها الطفوليّة، صراع وجوديّ تعكسه علاقتها بالأرض والطبيعة والجزائر، فالأرض الجزائريّة بالنسبة لها هي مصدر للفجيعة والنجاة في آن واحد، وهي كذلك الوطن وهي الأم، وهي الأصل والجذور والذاكرة ورمز الطفولة.

6. الهوامش

[1]سيغموند فرويد: قلق في الحضارة، تر جورج طرابيشي، بيروت، لبنان، دار الطليعة، ط4، 1996، ص32.

[2]ولدت نينا بوراوي بتاريخ 31 جويلية 1967 بمدينة رين الفرنسية من أم فرنسية وأب جزائري، عاشت بالجزائر إلى غاية بداية الثمانينات، نالت جائزة إنتر سنة 1991 عن روايتها الأولى la voyeuse interdite"المتلصصة الممنوعة" ثمّ نشرت بعدها العديد من الأعمال الروائية الأخرى لم يترجم منها إلى اللغة العربية سوى رواية mes mauvaises pensées"تخيلاتي الشريرة" " وهي الرواية التي نالت عنها جائزة رونودو 2005 وتحتل أعمالها حيّزا مهما في الدراسات النقدية العالمية.

[3]ليون غرينبرغ وربيكا غرينبرغ: التحليل النفسي للمهجر والمنفى، ترجمة تحرير السماوي، دمشق، سوريا، دار المدى، ط1، 2008، ص35.

[4]جان لابلانش و ج.ب.بونتاليس: معجم مصطلحات التحليل النفسي، تر: مصطفى حجازي، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط3، 1997، ص336.

[5] سيجموند فرويد: ما فوق مبدأ اللذة، تر إسحاق رمزي، الإسكندرية، مصر، دار المعارف، (د.ت)، ط5، ص58.

[6]جان لابلانش و ج.ب.بونتاليس، معجم مصطلحات التحليل النفسي، ترجمة مصطفى حجازي، مرجع سابق، ص335.

[7] عبد المنعم حنفي: المعجم الموسوعي للتحليل النفسي، ج2، بيروت، لبنان، دار نوبليس للنشر، ط1، ص77.

[8]ديلان أيفانز: قاموس لاكان التمهيدي في التحليل النفسي، تر محمد محمود خطاب، القاهرة، مكتبة الأنجلو مصرية، ط1، 2016، ص87.

[9] Nina Bouraoui, Le jour du séisme, Blida, Algérie, barzakh imprimerie Mauguin, 2016, p23.

[10] Nina Bouraoui, Le jour du séisme, p74.

[11]Nina Bouraoui, Le jour du séisme, p39.

[12]Nina Bouraoui, Le jour du séisme, p9.

[13]جان لابلانش و ج.ب.بونتاليس، معجم مصطلحات التحليل النفسي، تر:الدكتور مصطفى حجازي، مرجع سابق، ص338.

[14]Nina Bouraoui, Le jour du séisme, p15.

[15]Nina Bouraoui, Le jour du séisme, p27.

[16] ميشال بوتور: بحوث في الرواية الجديدة، تر فريد أنطونيوس، بيروت-باريس، منشورات عويدات، ط2، 1982، ص5.

[17]Nina Bouraoui, Le jour du séisme, p37.

[18]ميشال ديرميه: الفنّ والحسّ، تر وجيه البعيني، بيروت، لبنان، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1988، ص469.

[19]Nina Bouraoui, Le jour du séisme, p37.

[20] Otto Rank ; le traumatisme de la naissance ; traduit par S.Jankélévich postface du Dr Claude Girard ; Paris; Edition Payot et Rivages ;2002; p16.

[21]Nina Bouraoui, Le jour du séisme, p61.

[22]موريس بلانشو: كتابة الفاجعة، تر عز الدين الشنتوف، المغرب، دار توبقال للنشر، 2018 ط1، ص59.

[23] موريس بلانشو: كتابة الفاجعة، تر عز الدين الشنتوف، مرجع سابق، ص54.

[24]Nina Bouraoui, Le jour du séisme, p90.

[25]Nina Bouraoui, Le jour du séisme, p61.

[26] موريس بلانشو: كتابة الفاجعة، تر عز الدين الشنتوف، مرجع سابق، ص59.

[27]Nina Bouraoui, Le jour du séisme, p89.

[28]Nina Bouraoui, Le jour du séisme, p54.

[29]فريد الزاهي: الجسد والصورة والمقدّس في الإسلام، الدار البيضاء، المغرب، إفريقيا الشرق، ط1، 1999، ص27.

[30] Myriam Brousse : les mémoires du corps, se libérer de la répétion des traumatismes ; France, Edition du Rocher ;2021, p157-158.

[31]Nina Bouraoui, Le jour du séisme, p96-97

[32]موريس بلانشو: كتابة الفاجعة، تر عز الدين الشنتوف، مرجع سابق، ص54.

[33] Nina Bouraoui, Le jour du séisme, P87.

[34]Nina Bouraoui, Le jour du séisme, p96.

7. قائمة المصادر والمراجع:

-أ- العربيّة:

1- جان لابلانش و ج.ب.بونتاليس، معجم مصطلحات التحليل النفسي، ترجمة مصطفى حجازي، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط3، 1997.

2- موريس بلانشو: كتابة الفاجعة، تر عز الدين الشنتوف، المغرب، دار توبقال للنشر، ط1، 2018.

3- ميشال بوتور: بحوث في الرواية الجديدة، تر فريد أنطونيوس، بيروت-باريس، منشورات عويدات، ط2، 1982.

4- ميشال ديرميه: الفنّ والحسّ، تر وجيه البعيني، بيروت، لبنان، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1988.

5- فريد الزاهي: الجسد والصورة والمقدّس في الإسلام، الدار البيضاء، المغرب، إفريقيا الشرق، ط1، 1999.

6- ديلان أيفانز: قاموس لاكان التمهيدي في التحليل النفسي، ترجمة محمد محمود خطاب، القاهرة، مكتبة الأنجلو مصرية، ط1، 2016.

-ب-الأجنبيّة:

-1-Nina Bouraoui, Le jour du séisme, Blida, Algérie, barzakh imprimerie Mauguin, 2016.

-2-Myriam Brousse, Les mémoires du corps : se libérer de la répition des traumatismes, ; France ;Edition du Rocher ; 2021.

-3- Otto Rank : le traumatisme de la naissance : traduit par S.Jankélévich postface du Dr Claude Girard ; Par, Edition Payot et Rivages ;2002.